النقوش والرسوم الصخرية
كمصدر للتاريخ

د. حسن الشريف(*)

تمتد العصور التاريخية آلاف الأعوام قبل ميلاد المسيح ، هى عمر الحضارات القديمة ، ولكنها ليست عمر الإنسان . ولقد كان عليه كى يبلغها أن يقطع شوطاً طويلاً ، ومسيرة شاقة ، مليئة بالانتصارات حيناً ، بالصعوبات حينا آخر .

وأساس البحث فى العصور التاريخية ، هى الوثيقة المكتوبة ، يكملها الكثير من المخلفات التى خلفها إنسان هذه الحضارة أو تلك . ومنهج البحث فى عصور ما قبل التاريخ يعتمد على المادة الحجرية ، التى قد تكون وفيرة أحياناً ولكنها لا يمكن أن تمدنا بكل ما نريد أن نعرفه عن جوانب الحياة الأخرى كالمعتقدات ، والنظم ، والعلاقات والقوانين المنظمة للجماعات . ولا تكشف لنا عن كيفية الطقوس الجنائزية ، أو الأعراق ، أو الهجرات ومساراتاها . لذلك دعت الحاجة إلى الاستعانة بأفرع بعض العلوم الأخرى كالإنتروبولوجيا الطبيعية والجيولوجيا ، وعلم الحياة القديمة (الإحاثة) ، وعلم طبقات الأرض ، بل جرى توظيف بعض مستحدثات العلوم الحديثة كعلم النظائر المشعة .

ولقد انبثق من صحرائنا الممتدة من ساحل المحيط الأطلسى إلى قلب وأطراف شبه الجزيرة العربية كم لا حصر له من النقوش والرسوم الصخرية ، التى تنعتها بعض الدراسات بالفن الجدارى . ولعظم هذه الظاهرة ، ولاتساع رقعة انتشارها ، لم يتم لها بعد تصنيف محكم لما تحتويه من موضوعات ، أو تجسده من أساليب وتقنيات مختلفة ، أو لما تمثله من مجموعات حسب أماكن وجودها .

(*)كلية الآداب – جامعة الإسكندرية – فرع دمنهور .

وبادئ ذى بدء علينا أن نلاحظ أن هذه النقـوش أو الرسـوم الصخريـة ، لا تكشف لنا إلا عن المشاهد الختامية لتلك العصور السحيقة التـى قطعهـا الإنسـان . وهى مع ذلك تكتسب أهمية كبرى ، لكونها حدثـت قبـل وقبيـل بدايـة العصـور التاريخية . ولذا فإنها المصدر الذى يمكن أن يفصح لنا عن الكيفية التى وقعـت بهـا الأحداث الكبرى فى تلك العصور السحيقة ، ومن هم صانعوها .

ولا يحول دون ذلك سـوى أن فهـم النقـوش أو الرسـوم الصخريـة تعترضـه صعوبتان ، ربما يطول أمد التغلب عليهما .

أما الصعوبة الأولى فتتمثـل فـى محاولـة إيجـاد تقويـم زمنـى لهـذه المخلفـات وطبقاتها . فهى من جانب الزمـان تمتـد قرابـة العشـرة آلاف عـام ، ومـن جـانب المكان تمتد فى شكل حزام عريض بطول عدة آلاف من الكيلو مترات .

والصعوبة الثانية تتمثل فى غزارة موضوعاتهـا التـى لم يمكـن فهـم إلا النـذر اليسير منها أو افتراض فهمه ، ويبقى الجزء الأعظم منها منغلقاً على مضامينـه التـى نفذ من أجلها .

على أنه مما ينعش من آمالنا ويقويها ، أنه أمكن العلماء الاقتراب من التغلب على الصعوبة الأولى ، إذ اقترح البعض منهم عمـل جـداول زمنيـة لبعـض مواضـع هذه المخلفات مستعينين بوسائل بحث مساعدة ، كأعمال الحفائر الأثرية التى يقوم بها منـذ عـدة سنوات ف . مـورى فـى مواقـع تلـك النقـوش فـى منطقـة جبـال الأكاكوس من نواحى غات فى جنـوب غـرب ليبيـا . وقـد حـالف مـورى الحـظ فكان من حسن طالعه أن عثر على قطعة صخرية لهذه النقوش داخل طبقة أثريـة تم الكشف عنها . وبذلك تمكن من أن يمسك بدليل لا يقبـل التـأويل لتـاريخ إحـدى فترات هذا الفن العظيم . وعلى الجانب الآخر أمكن للعلماء الاستفادة من خاصيـة جيولوجية موجودة فى تكوين الصخور ، وهو ما أسموه بغبار الزمن Lapatine ، أو الزنجار - حسب ترجمة المعاجم العربية - والزنجار طبقة رقيقة تتكون حـين يتـم خدش أ ونحت الصخر بأداة حادة - أى بفعل فاعل - وتبدأ عملية تفاعل كيميائى

ما بين مادة الصخر والعوامل الجوية المختلفة من حرارة وأمطـار . وبتحديـد سمـك طبقة الزنجار ولونها يقدر ما مر عليه من زمن . وبواسطة هذين العاملين أى سمـك الطبقة ولونها ، يمكن تحديد عمـر النقـش الزمنـى تحديـداً نسـبياً . كذلـك حـاول العلماء الاستعانة بوسيلة إضافية أخرى لإيجاد ترتيب زمنى لموضوعات هذه النقوش والرسوم، يقوم على أساس تصنيـف نوعـى للحيـوان السـائد فـى الرسـم . ويكـاد يكون هذا الترتيب هو المتفق عليه بـين أغلبيـة البـاحثين . واحتسـبوا أقـدم مراحـل النقوش - المرحلـة التـى تضـم المجموعـة الأثيوبيـة وحيواناتهـا العشـبية الضخمـة ، وتسمى بمرحلة الصيادين أو التيتل . ثم يلى ذلك مرحلـة البقريـات أو الثـور وهـى أيضاً مرحلـة الرعـى ؛ وهـى أطـول مراحـل النقـوش ، إذ سـادت مـا بـين الألـف السادس ق. م. ونهاية الألف الثـانى ق. م. حيـث تبـدأ مرحلـة الحصـان . وتـأتى بعدها مرحلة الجمل لتطوى صفحة هذا الفن(١) .

الواقع إن مجهودات العلماء لم تقف عنـد حـد الوسـائل السـابقة ، وإنمـا تعدتها إلى طرق ووسائل جديدة ، يجـدر الإشـارة إلى أشـهرها ، وهـى طريقـة اختبارات الكربون المشعة أو ك ١٤ كما يرمز إليهـا غالبـاً . ولنـا أن نعلـم أن عدد الأختبارات التى تمت بواسطة هذه الطريقة حول الصحراء الكبرى لم تكن تتعدى ١٦ تاريخاً حتى عام ١٩٦٣ ، ثم صارت ٢٨٦ تاريخاً فـى عـام ١٩٧٥ (كامبس ١٩٧٦) .

وإذا ما انتقلنا إل العقبـة الثانيـة ، وتكـاد تكـون العقبـة الكـأداء ، ربمـا نلحظ أن مجهودات العلماء فى هذا الصـدد حثيثـة ، فـالعمل مضنـى وشـاق ، ويحتاج إلى اسـتعدادات خاصـة وشـروط عاليـة المسـتوى مـن الثقافـة والمعرفـة بمعانيها الواسعة .

والباحث لا يدعى لنفسـه أنـه يمتلـك هـذه الامكانـات ولكـن إدراكـاً منـه لأهمية الموضوع وجسامته ، يود أن ينوه بأهمية هـذه الظـاهرة الأثريـة العظيمـة . ذلك أنه فى تفسير مضامين النقوش والرسوم الصخرية ، ما يمكن أن يدعم الوصف

التاريخى للأحداث ، وفى حالات أخرى يكشف لنا عن أحوال ذات أهميـة بالغـة للتاريخ الحضارى . وهذا ما سيحاول الباحث أن يثبته .

والواقع إن القضية الأولى تتعلق بمنشأ استئناس الحيوان فى الصحراء ، وهـو موضوع يرتبط بمولد الزراعة . فمن المعلوم أن الإنسان لم يمارس تربية الحيوان ، إلا عندما توفر له فائض فى إنتـاج الطعـام ، ولم يتحقـق لـه ذلـك إلا عندمـا بـدأ فـى الزراعة ؛ (العصر الحجرى الحديث) . ومن المعلوم أن الحضـارات القديمـة قـامت فى أحضان المجتمعات الزراعية على ضفاف الأنهـار ، كالحضـارة العراقيـة القديمـة والحضارة المصرية . فالبحث فى نشأة الزراعة ، هـو بحـث فـى أصـول الحضـارات القديمة . لذا اتجهت مجهـودات العلمـاء حـول تحديـد الموطـن الأصلـى لاكتشـاف الزراعـة ، وتركـزت آراؤهـم حـول موضوعـين : إمـا غـرب آسـيا ، وإمـا شمـال أفريقية(٢) .

ولأسباب عديدة اتجهت الآراء نحو أسبقية غرب آسيا فى اكتشاف الزراعة، اعتماداً على قـراءات ك ١٤ علـى عينـات أخـذت مـن مواقـع عراقيـة ومصريـة ، وكانت تواريخ المواقع المصرية متأخرة عن تواريخ المواقع العراقية بفارق كبـير(٣) . ومما ساعد على تأكيد هذه النظرة أنـه لم يكـن قـد توفـرت معلومـات كافيـة عـن نيوليتى الصحراء الكبرى وشمـال أفريقيـة . وعلـى ذلـك قـام اعتقـاد بـأن الزراعـة اكتشفت فى مواقع بغربى آسيا ، ومنها انتقلت إلى مصر والشمال الأفريقى . ومع الزراعة دخلت التقنيات الأخرى ، ومنها استئناس الحيوان . وقد تـأثر البعـض مـن العلماء بهذه الفكرة ، فنسبوا ذلك إلى مهاجرين أتوا من الشرق ونزحوا بقطعـانهم إلى الصحراء الأفريقية ، وهؤلاء هـم أصحـاب مرحلـة نقـوش البقريـات(٤) ، فـى زعمهم . وقد حدا الأمـر بلفيـف مـن العلمـاء إل دراسـة المشـاهد التـى صورتهـا النقوش ، وخرج د. كوبر (١٩٧٨) باعتقاد أن اسـتئناس البقـر مارسـه أصحابـه الرؤوس المستديرة ، وهم السابقون على فترة الرعـاة أو مرحلـة البقريـات ، حيـث تشير نقوشهم (أصحاب الرؤوس المستديرة) إلى وجود رعاة بقر كثـيرين . ورأى

الرأى نفسه شتريتر (١٩٧٨) ، الذى يرفض الفرضية القائلة بـأن البقـر المستأنس أتى إلى الصحراء قادماً من الشرق ، ويراها تفتقر إلى الأدلـة المقنعـة . وهـو يعتقـد عكس ذلك ، فالنقوش الصخريـة فـى الصحـراء تقـدم كثـيراً مـن المؤشـرات التـى توضـح أن فكـرة ترويـض الحيوانـات البريـة ، لم تكـن غريبـة عـن الحضـارات الصحراوية القديمة ، وأنها قد ترجع فى قدمها إلى فترة الصيـد ، وعليـه - حسـب رأيه - يجب أن نناقش جدياً كون تربية الأبقار تعود فى نشأتها إلى الصحراء .

ولقد سبق لكلارك (١٩٧٨) ، أن أعلن أنه يرى أن فرضية ترويـض البقـر فى الصحرا ء الكبرى ، فى مرحلة العصر الحجرى الحديث ، تبـدو أكـثر احتمـالاً منها فى مناطق أخرى لم يتم اكتشافها بعد بشكل كاف .

والواقع أن الفارق بين أصحاب الرأيين ، هو أننا فى الصحراء الكبرى نملـك على الأقل الدليل الذى سجل لنا هذه التقنية كشف عن اصحابها ، الأمر الـذى لم يتوفر لأى مكان آخر . وهناك نموذج آخر لمعضلة من المعضلات التى أثارت الكثير مـن الجـدل ، هـى ظـاهرة حمـل بعـض حيوانـات النقـوش - المجـترات علـى وجـه الخصوص - شكلاً مخلقاً على هيئة قرص ، فوق رأس الحيوان .

وانتشرت نماذج هـذه الظـاهرة ، مـن جنـوب مقاطعـة وهـران بـالجزائر إلى صحراء مصر الشرقية .

ولما كانت بعض أشهر آلهـة المصريـين القدمـاء صـورت وهـى تحمـل فـوق رؤوسها قرصاً دائرياً ، رمزاً لعبـادة الشـمس ، كحتحـور وإيزيـس مـن الربـات ، وآمون ورع من الأرباب ، فقد دار البحث حول أصول هـذه الفكـرة ، وعمـا إذا كانت تشير إلى انتشار تأثيرات عقائديـة بـين أقطـار الشـمال الأفريقـى والحضـارة المصرية القديمة فى وادى النيل .

ولقد كان فى غياب تقويم زمنى معلـوم لزمـن النقـوش ، مـا أغـرى بعـض الباحثين، أن يرجعوا أصول هذه الظاهرة ، إلى تأثيرات عقائدية من مصر القديمـة .

ورأوا فى وجود معبد للإله آمون فى واحة (سيوة) ركيزة لزعمهم ، حتى أنهم لم يستبعدوا ربط كبش (بو علام) فى جنوب وهران بكبش آمون ، وكبش بوعلام يصور كبشا يحمل بين قرنيه قرصاً مستديراً ، تم صقله بعناية فائقة ، ويقف أمامه رجل بهيئة كاهن ، يرتدى القراب القضيبى ، وهو بهيئة الليبيين القدماء(٥).

ويبدو أن هذه النظرة كانت متعجلة ، ولها جاذبيتها . ولكن الواقع الأثرى يتعارض معها لأن المجترات ذات الأقراص ، ظهرت مبكرة جداً عن عصر انتشار عبادة آمون . فقد ظهرت على الأوانى الفخارية الخاصة بحضارة جرزه فى مصر ، وهى من حضارات عصر ما قبل الأسرات ، أى حوالى الألف الرابع ق. م. أما عن كباش جنوب وهران ، وكذلك الأشخاص التى صورت برؤوس حيوانية ، فقد وجدت فى تاسيلى وفزان ، وسط الصحراء الكبرى ، وترتبط فى الغالب بأصحاب الرؤوس المستديرة ، وبعض الآراء ترى أنهم هم الذين أنتجوا فن ما قبل الأسرات فى مصر (Lhote, and Breuil, ١٩٦٠) .

الواقع أن كثافة نقوش منطقة تاسيلى وفزان ، وما تتميز به من جمال الأسلوب ودقة التنفيذ ، ما يجعلنا نميل مع الرأى الذى يرى نقوش تلك المناطق مركزاً لإشعاع هذا الفن إلى جميع الأنحاء . كذلك تجدر الإشارة إلى أن النماذج التى عثر عليها فى وادى النيل والصحراء المحيطة به ، كان أغلبها قد اتبع تقنية التطريق ، وهى تقنية مغايرة لما عليه نقوش تاسيلى وفزان ، التى نفذت بتقنية الحفر الغائر ، أو بواسطة الرسم باستخدام الألوان الزاهية . وهذا ما يراه شيرقيشيك (١٩٧٨) ؛ وبمقارنة النقوش الصخرية الموجودة فى وادى النيل والمنطقة الصحراوية المتصلة به ، مع ما هو موجود بأواسط الصحراء الكبرى (تاسيلى وفزان) تثبت مدى تقدم فن الرسم والنحت الصخرى فى هذه المنطقة الأخيرة . هذا بالإضافة إلى ان الرسوم المصرية قليلة وصغيرة الحجم نسبياً .

وعليه فإن فرضية أن المصريين القدماء تلقوا تأثيرات فنية من الصحراء ، هى الفرضية الأقرب إلى القبول .

وقد يكون من أروع الأمور ، أن تتوافق الحقائق التاريخية ، مع معطيات النحت والرسم الصخرى . فإذا ما حدث وتم ذلك فإن نتائجه تكون فى الغالب باهرة وذات أثر على البحوث التاريخية . ولبيان ذلك ، نتناول أحد موضوعات النقوش الصخرية ، وهو موضوع ظهور الحصان كمرحلة رئيسية من مراحل هذا الفن العظيم .

فمن المسلم به أن الحصان ظهر فى مصر والشمال الأفريقى حوالى النصف الثانى من الألف الثانية قبل الميلاد . وقد استخدمه المصريون فى أول الأمر فى جر العربات الحربية ، حارب ملوك الدولة الحديثة (١٥٧٠ - ٩٥٠ ق. م.) أعداءهم بهذا السلاح الرهيب بمقاييس ذلك الزمن ، وربما كان الحصان وراء انتصارات المصريين وسببا من أسباب نجاحهم فى تكوين إمبراطورية كبرى فى النصف الثانى من الألف الثانى قبل الميلاد .

ويبدو أن الأمر استغرق قرنين أو أكثر كى ينتقل الحصان إلى الشمال الأفريقى عبر مصر . ولم يتم الأمر تحت ضغوط اقتصادية (شتزيتز ١٩٦٩) ، بل ربما كان مجرد حادثة تاريخية ارتبطت بتوغل جماعات من البشر فى وسط الصحراء، واصطدمت بحضارات تربية الأبقار ، أو بمجموعات من بقاياها . ومن المعتقد أن الحصان كان وسيلة هذه الجماعات الوافدة للتوسع ، لأنه ارتبط فى الرسوم بمشاهد الحروب والقتال . وأيا كان الأمر ، فنحن إذن أمام ساعة زمنية ، يمكن بواسطتها تحديد المرحلة الزمنية لإحدى مراحل النقوش الصخرية فى الصحراء على قدر معقول من اليقين .

وكان من حسن حظ البحث التاريخى أن أمكن الاستفادة من هذه المعطيات لحل إحدى معضلات التاريخ الليبى القديم ، وأمكن التأريخ لعناصر بشرية هامة فى تاريخ ليبيا ، عرفوا بالجرمنت أو الجرميين نسبة إلى عاصمتهم (جرما) فى

وادى الآجال (الحياة) فى أوبارى من نواحى فزان . والواقع أن اصول هذه الجماعة يكتنفه الغموض ، كانت هناك عناصر قوية أقامت ما يشكل جسراً تجارياً هاماً بين أفريقيا الاستوائية والبحر المتوسط . وفى العصر الرومانى كانت (جرما) شوكة قوية أمام التوسع الرومانى نحو الجنوب . وقد ظهرت هذه العناصر فى النقوش كفرسان يمتطون خيولهم أو كسائقى عربات تجرها الخيول(٦) .

وعن طريق هذه العناصر فى النقوش تكونت لدينا معلومات مفيدة عن ملابسهم وأسلحتهم وعرباتهم . وحيثما يوجد نقش لهم ندرك على الفور المدى الذى وصل إليه نفوذهم ، وكل هذه المعلومات ما كان يمكن أن نحصل عليها ولو أجريت حفائر لذلك(٧) .

من النموذج السابق ندرك مدى الإسهام الفعلى والمفيد ، حينما يتحقق قدر من الوضوح مع قدر من اليقين ، لمجموعة من النقوش أو الرسوم الصخرية فى منطقة ما . ولكن الأمر لا يسير على هذا المنوال دائماً ، فربما كان النموذج السابق حالة خاصة فريدة . وفى حالات كثيرة تصمت النقوش عن الإفصاح عن مكنوناتها ، مما ينعكس على البحث التاريخى بالسلب ، فلا يتوفر له - والحال هكذا - إلا الحدس والتخمين ، وهذا ما سنضرب له المثل .

ذلك أنه شاع فى رقعة واسعة من النقوش والرسوم الصخرية تصوير لشخصيات خيالية صورت بأحجام مبالغ فيه أو مخلوقات عجيبة مخلقة .

وسنكتفى هنا - مراعاة لمقتضى الحال - بثلاثة نماذج من تلك الشخصيات الخيالية ، فعلى سبيل المثال : إثنان من لوحات تاسيلى نشر هنرى لوط(٨) ، والنموذج الثالث من رسوم شبه الجزيرة العربية ، من وادى ضم تبوك(٩) ، شمال شبه الجزيرة العربية .

ففيما يتعلق بموضوع اللوحة الأولى رقم ٣٥ من لوحات تاسيلى يسميها لوط بـ (السيدة البيضاء) ، وأبعاد الرسم هى ١٥٠ سم × ١٠٠ سم . وقد

لونت بالمغرة الصفراء مع لـون أبيـض والتنـورة ومتعلقـات الرقـص ، مـع حلقـات الساعد وأربطة الساق . ويبدو أنهـا جميعـاً صنعـت مـن أليـاف أو سـيور دقيـق . وكذلك الحال مع قراب اليدين ، والرأس يحمل ما يشبه قبعـة مـن النباتـات يخـرج منها قرنان ؟ ويتساقط من القبعة ما يعتقده لـوط ... حبـوب ؟ ويقـول لـوط أننـا بإزاء إحدى الكاهنات ذوات العلاقـة بشـعائر الزراعـة أو هـى ربـة الزراعـة ، قـد تكون تجسيداً للربة (إيزيس) المصرية التى كانت هى الأخرى ذات علاقة بطقوس الزراعة والأمومة والخصوبة . وقد وافق Breuil لوط Lhote علـى هـذا التفسـير . أما الرسم فهو يعود إلى مرحلة الرؤوس المستديرة حسب رأى لوط Lhote.

ولا شك فى أن فى إبراز افنان لشخصية معينة وسط مجموعة من الأشخاص الآخريـن بواسـطة إشـارات خاصـة أو بتضخيـم الأحجـام ، لهـو دليـل علـى تمـايز اجتماعى أو سياسـى أو دينـى . وهـو مـا سـوف نشـير إلى ثبوتـه لـدى المصريـين القدماء، منذ البدايات الأولى لتاريخهم .

والواقع أنه بتفحص الرسم المعنى (السيدة البيضاء) نلحظ أن ما ذهـب إليـه لوط Lhote ربما له ما يبرره ، فى الربط بين موضوع الرسـم والربـة (إيزيـس) . ففى وجود القرنين على الرأس مـا يذكـر بقرنـى البقـرة لـدى (إيزيـس) ، وهـذا التنقيط الذى يشبه تساقط الحبوب مـن الثديين ربمـا كـان تجسـيداً لمعنـى الأمومـة والخصوبة . كانت (إيزيس) تمثل فى بعض مشاهدها ، وهى تعطى ثديهـا لابنهـا (حورس) رمزاً للملكية فى مصر . أما بشأن المبالغة فى تضخيم حجـم السـيدة ، فإننا نجد له تفسيراً لدى المصريين ، الذين دأبوا منذ عهد بداية الأسرات على رسـم ملوكهم بأحجام مبالغ فيها بالنسبة لبقية المشهد كما أنهم اتبعـوا نفـس الأسـلوب عند تصوير آلهتهم . (قارن – على سبيل المثال – الضخامة التى صـور بهـا الملـك نعرمر فى صلايته المشهورة باسمه) .

وملاحظة هامة أخرى ، ذلك أن الهيئة الطقسية التى عليها (السيدة البيضاء) كما لو كانت تجرى ، تقترب إلى حد كبير مع هيئة الملك الفرعون ، حينمـا كـان

يؤدى طقس عيد (الحب سد) أو العيد الثلاثينى لتجديد الخصوبة المتمثلة فى قوة وفحولة الملك الحاكم ، وهو عموماً طقس يرى أغلب علماء المصريات أن له أصوله الأفريقية . والملك هنا هو القوة التى تهيمن على مظاهر الطبيعة وترتبط بها.

ومما يثير الدهشة أن هناك نقشاً للملك زوسر ٢٦٨٠ ق. م. الأسرة الثالثة - يصور الملك - وهو يجرى حول حائط فى مشهد طقسى . ويكاد يكون الملك عارياً ، إلا من غلالة رقيقة تستر العورة ، الأمر الذى يقربه إلى حد ما من المظهر العام للسيدة البيضاء(١٠) .

أما النموذج الثانى من لوحات تاسيلى ، فقد أطلق عليه لوط Lhote إله كبير بصحبة المصليين ، والمشهد ملون بالأحمر الداكن واللون الأبيض ، وأبعاده ٣٦٠سم × ٧٦٠ سم . أما الشخصية الرئيسية التى تتوسط الرسم (الإله الكبير) فهى تنفرد بقامة طولها ٣,٢٥م . وحسب رأى لوط الرسم يعود إلى مرحلة الرؤوس المستديرة كذلك ، وإن كانت الحلقة الأخيرة منها . وقد اكتفى لوط بوصف الرسم على أنه مشهد سحرى يتعلق بطقس الخصوبة ، ربما لوجود ما يمكن اعتباره قرنين يبرزان من رأس الإله الكبير ولوجود صور للجاموس القديم.

وحقيقة الأمر أن موضوع الخصوبة وما يرتبط بها من معانى النماء والتكاثر، كانت القضية الكبرى - على حد تعبير خبير النقوش زيربو(١١) ، وخصوصاً فى أواخر عصور ما قبل التاريخ فى الصحراء ، وذلك إثر إنكماش كل أثر للحياة أمام الزحف الحتمى نحو الجفاف . وربما من نافلة القول أن نذكر أن جميع شعوب العالم القديم ، كانت تجسد فكرة الخصوبة أو آلهة الأم ، وتتخذ من جسم المرأة رمزاً لها .

أما بالنسبة للنموذج الثالث ، فهو من شمال شبه الجزيرة العربية ، وربما كان النموذج الوحيد من تلك المنطقة . وقد وصفه مجيد خان بأنه رسم لمعبودات

مجهولة. ويظهر الرسم قرب أصابع اليد الممدودة ، خطوطاً صغيرة مموجة رسمت كفرع مصحوبة برسم على شكل نجمة ، مما يعطى إيحاء بأن الأشعة تخرج من الأصابع والنجمة على حد تفسير خان ، الذى يعتقد بأن الرسام ربما قصد به صنماً وثنياً يرتبط بعلاقة ما بالمطر والبرق . ونحن نعرف أنه كان لدى الشعوب السامية دائماً إله للمطر والصواعق .

وإذا كان هذا هو كل ما يمكن أن تعطيه لنا هذه الأشكال الخيالية من تفسير، وفق ما أسفرت عنه البحوث الحالية ، إلا أنه من الممكن إضافة فائدة أخرى ، هى أننا ربما نكون أقرب فهماً لما وجد لدى المصريين القدماء من عادة تضخيم حجم آلهتهم أو ملوكهم عند تصويرهم .

فإذا ما تناولنا الشق الآخر من موضوع الأشكال الغريبة ، والتى يزخر بها الفن الجدارى واجهتنا حقيقة أشد غرابة وأكثر استغلاقاً للفهم .

ونكتفى بمثالين فقط من هذه الكائنات الغريبة لما يثيراه من ايحاءات معينة ، قد تكون ذات علاقة بجذور بعيدة مشتركة ، اندثرت من أزمان ساحقة ، ولم يتبق منها غير الأفرع التى قد تبدو لنا فى صورتها التى شكلت عليها غامضة ، ومتقطعة الصلات .

ويأتينا النموذج الأول من وادى ضم من شمال المملكة العربية السعودية ، وقد أسماه خان (الكائن الخرافى) وجاء فى وصفه له : «حيوان غير مميز يبلغ طوله حوالى مترين وعرضه ٨٠ سم ويتكون من بدن ممدد ، ورقبة نحيفة ووجه صغير ، ويوجد على الرأس نتواءان صغيران ، ربما قصد بهما القرنان وهذا الشكل لحيوان غريب وضخم وهو يفتقد إلى الفكرة وواضح فيه رداء التنفيذ» .

ومن المدهش أن خان اقترب فى كلماته تلك من كلمات فوفريى Voufrey عن كائن آخر منقوش على الركائم الصخرية فى موقع (جارة الطالب) بالجزائر

وقد أسماه فوفريى بـ (الحيوان الخرافى) . وهو عبارة عن رسم بطول ستة أمتار ، يتكون جسده من ثمانية حلقات متتابعة منتظمة حول قصبة هوائية على مـا يبـدو . ويمتد له ذيل طويل مردود للأمام ينتهى بكلاب ، والرأس مزود بقرنى استشعار أو ألسـنة للفـك ، وفـى الجـزء القريـب مـن الذيـل معلـق نـوع مـن كيـس مـــزدوج للخصيتين، وقد صقل بعناية ، وقد رآه فوفريى طوطماً للملـك العقـرب ؟ (١٢) ، وأنه لابد من ارتباطه لديهم بإدراكات ومشاعر دينية أولية ، وهى تبدو ذات علاقة بما للمصريين فى فترة ما قبل الأسرات(١٣) .

والواقع أنه فى غياب تفسير ممكن لمثل هذه الأشكال الخرافية ، لا يسـعنا إلا اللجوء إلى تفسيرات أسطورية . فالجهد الذى بذل فى تنفيذها ذات علاقة موثوقـة بالعالم الروحى لأصحابها . ولقد كانت الأسطورة دومـاً - كمـا يذكـر زيربـو - هى فى النهاية طريقة يستعملها الإنسان لإدارك الكـون ، وجعلـه مفهومـاً ؛ إذ أن الخطاب الأسطورى يعتمد على منطق ذاتى خاص به ؟ فتمثيل كـائن مخيـف يعنـى فى الغالب التخلص من سيطرته ، ومراقبته بالنظر تعنى السيطرة عليه(١٤) .

وربما تجدر الإشارة إلى إمكانية أن ندرج تحـت هـذا النـوع مـن التفسـيرات الكثير من النقوش التى تنشر فى أنحاء عديـدة مـن منـاطق النقـوش . وعلـى سـبيل المثال لا الحصر ، نشرت وزارة الدولة للشؤون الثقافية بالمملكـة المغربيـة ، فهرسـاً لمواقع النقوش بالجنوب المغربى حوى الكثير من هذه الأشكال التى يصعب فهمها.

يتضح من مجمل ما سبق ، مدى ما تكتنزه موضوعات النقوش والرسـوم الصخرية من قيمة علمية ، يمكـن فـى حالـة التعـرف عـن مكنوناتهـا أن نزيـل الغمـوض عـن كثـير مـن القضايـا مثـار الجـدل بـين علمـاء التـــاريخ والآثـــار والأنثرولوجيا كموضوع الأعراق ، والهجرات الكـبرى ومسـالكها وآثارهـا ، وغير ذلك مما يفيد البحث العلمى . وترى بعض الآراء أن عظم المسـاحة التـى تشغلها هذه الظاهرة ، وتنوع أساليبها وتقنياتها ، تدل على أنها لم تكن نتـاج شعب واحد ولا ثقافة واحدة .

وإزاء ظاهرة بهـذا الحجـم والتنـوع ، قـد يكـون مـن الأنسـب عنـد تنـاول موضوعاتها ، إتباع منهج الدراسة المقارنة ، مع التسليم بأن مثل هذا المنهج يتطلب حصراً لجميع النقوش والرسوم وتصنيفها ، وتحديد أساليبها والتقنيات التـى نفـذت بها، ويتطلب كذلك جداول لتقويمها زمنياً ، وجداول أخرى إحصائية .

فعلى سبيل المثال ، إن دراسة مقارنـة لأنـواع الحيوانـات التـى صـورت فـى موضوعات النقوش ، فى كل من شمال أفريقيا ومنـاطق مصـر العليـا وبـلاد النوبـة ومناطق شمال المملكة العربية السـعودية ، يمكـن أن تفيـد فـى معرفـة سـبب غيـاب حيوانات المجموعـات الأثيوبيـة بحيواناتهـا العشـبية الضخمـة مـن نقـوش المنطقتـين الأخيرتين . مع العلم بأن مناطق مصـر العليـا والنوبـة تمـيز نتاجهـا فـى مجـال الفـن الصخرى بشكل ليس له مثيل ، سواء من ناحيـة المضمـون أو الأسـلوب . فيذكـر شيرفيشيك (١٩٦٩) ، أن هذه المناطق من مصر وبـلاد النوبـة عرفـت أسـلوب النقش البارز والمائل قليلاً ، وهو أسلوب ليس له وجـود فـى أى بقعـة أخـرى مـن العالم ، بما وصل إليـه مـن دقـة وإتقـان . وهـذا يجعلنـا نعتقـد أن هـاتين المنطقتـين تشكلان منطقة مستقلة فى موضوع النقوش .

أما بالنسبة لمناطق النقوش فى شمال المملكـة العربيـة السـعودية ، فربمـا كـان سبب غياب الحيوانات العشبية الضخمة أن هذه المجموعـة تعـرف أصـلاً بالمجموعـة الأثيوبية، أى أنها حيوانات أفريقية الأصل . وربمـا خضعـت شـبه الجزيـرة العربيـة لظـروف بيئيـة وجغرافيـة ، جعلتهـا بمعـزل عـن هـذه الحيوانـات ، وحـالت دون تواجدها فى مناطقها .

وملحوظة أخرى تتعلق بشبه الجزيرة العربيـة ، إذ لوحـظ أن مرحلـة الجمـل تعقـب مباشـرة مرحلـة البقريـات (الرعـى) . وبالتـالى نجـد أنفسـنا أمـام فرضيـة مدهشـة، وهـى أن شـبه الجزيـرة العربيـة لم تسـتخدم الحصـان قبـل القـرون الميلادية(١٥)، وقد يكون لظروف شبه الجزيرة الجغرافية ، أثر جعل مرحلـة الجمـل أسبق وأنسب لطبيعة المكان والمناخ ، من مرحلة الحصان .

والواقع أن الطبيعة الحيوانية للحصان تجعله لا يتلاءم مع ظروف مناخ جاف، ولذا تلاءم مع الظروف البيئية فى مصر وادى النيل ، كما تلاءم مع الظروف البيئية التى صار عليها وادى الشاتى بلىبيا حيث استخدمه الجرامنت - كما سبقت الإشارة - وظلت المياه الجوفية تنبثق من عيون طبيعية فى هذه المناطق، مما خفف من حدة عصر الجفاف فيها . ولذا فإنى لا أحجم عن القول بأن سمعة الحصان العربى المشهود لها بها ، ربما كانت أشبه بأسطورة بلا أسس تاريخية .

* * *

إذا كان لابد أن يكون لهذا العرض من خاتمة ، فليس هناك أكثر إلحاحاً من حاجتنا إلى أن نبحث ونستوثق فى خضم هذا الزخم من النقوش والرسوم، هل حاول أصحاب هذه الأعمال أو بعضهم - على الأقل - أن يرتقوا بجهودهم للتعبير عما تجيش به نفوسهم أو تجود به قرائحهم إلى مرحلة التعبير عن الأفكار التجريدية ؟ أى الأيدوجرام Ideogramme(١٦) بمعنى رسم الصورة التى تعنى فكرة ، أو تصوير يطابق بدرجة أكبر مصطلحاً لغوياً ... كرجل أو إله ... إلخ .

يرى - شتريتر (١٩٦٩) - أن مثل هذه الأبحاث مازالت غير موجودة وإن كنا ندرك من جانبنا أنه خلال العقدين الأخيرين جرت محاولات فى هذاالاتجاه . وممن اهتموا بدراسة هذا الاتجاه فى النقوش الصخرية ، خبير النقوش السنغالى زيربو(١٧) ، فقد نظر إلى موضوع النقوش على أنها جسر بين الواقع والفكرة ، وقدم فى سبيل بيان ذلك عدة آراء جديرة بالاعتبار . ويرى زيربو أن أكبر عقبة تحول دون تأويل الفن الصخرى تأويلاً صحيحاً هو الجهل بالظروف الاجتماعية التى أنتجت هذا الفن . وكان من رأيه أن الفن قد يفقد دلالته إذا أطلقنا على مشاهده عبارات مثل : السيدة البيضاء ... القضاة ... إلخ ، وهى تعبيرات من إنشاء باحثين من ذوى الثقافات الأجنبية . ومن ضمن ما ساق من أمثلة فى محاولته شرح أحد النقوش على جانبى صخرة ، ومحتوى النقش صورتى

أسد وكركدن . وقد نقش الأسد على الوجه الجانبى للصخرة لتضيئه الشمس بأشعتها الأولى ، فهو يمثل النهار ! فى حين أن وجه الكركدن موجه للغرب لأنه بمثابة روح الليل والظلام ! .

هل أصاب زيربو فى تأويلاته تلك ؟ ربما يكون قد اقترب بخطوات ما من بلوغ الهدف ، لأن أمانة البحث تفرض علينا تعضيده . وباب الأمل المفتوح أمامنا هنا هو الحضارة المصرية القديمة ، لأنها الحضارة الوحيدة التاريخية المكتوبة ، وهى تقوم على أرض أفريقية ، وهى فوق هذا كله نشأت فى حضن منطقة النقوش .

لقد كان لدى المصريين القدماء تركيباً لغوياً من أسدين ، استخدما لحساب الوقت ، فصور كل منهما يعطى ظهره للآخر ... ربما اتخذوا منهما رمزاً للهضبتين اللتين تحددان الحدود الشرقية والحدود الغربية للوادى .. وكان مثل هذا التركيب الرمزى يعنى مصطلحاً لغوياً المقصود به : الأمس وغدا .

إننا ندرك تمام الإدارك أن الشوط طويل بين ما هو متاح للعلماء من قدرات ووسائل وبين ما تصبو إليه آمالهم . ولولا أنه سبق للبحث العلمى أن شهد حالة تتطابق مع حالتنا هذه ، حيث ظل العلماء أجيالاً وأجيالاً فى موقف العجز أمام رموز اللغات الشرقية القديمة من هيروغليفية وسومرية وغيرهما ، ثم لاحت اللحظة المواتية فأمسكوا بها ، وحققوا أعظم انتصارات العقل البشرى بإحيائهم لغات ماتت من عصور سحيقة ، لاعتقدنا مع من اعتقد أن مكنونات النقوش الصخرية ومضامينها قد اندثرت مع أصحابها .

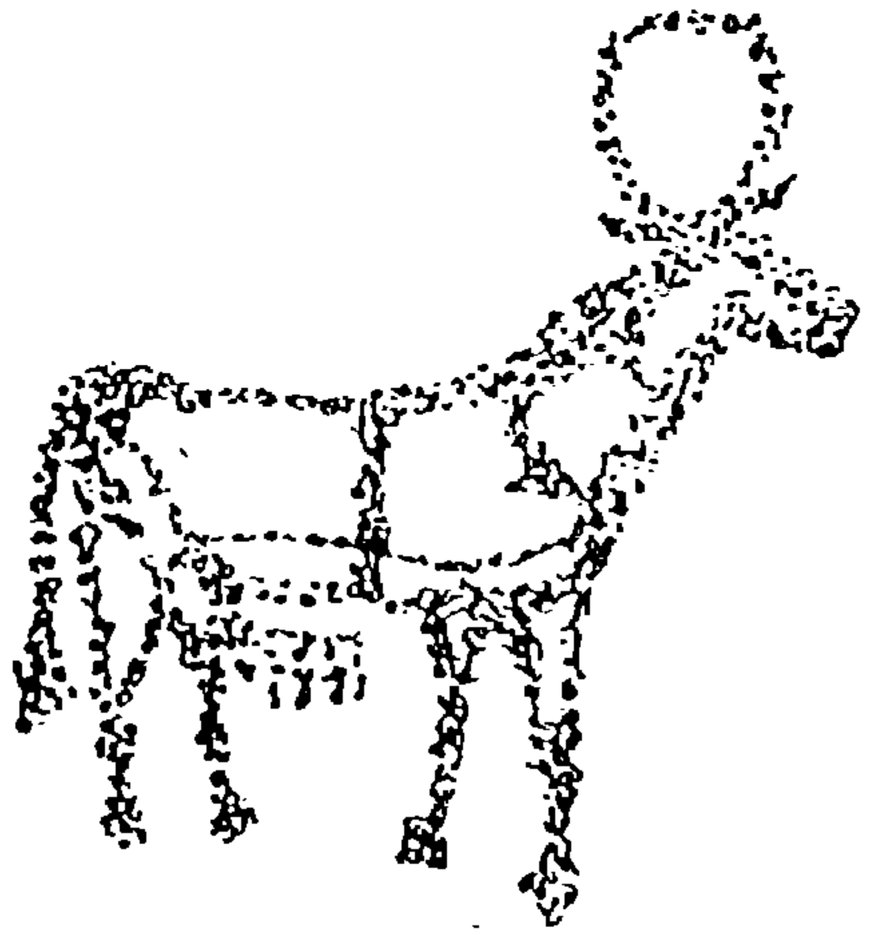

(١)

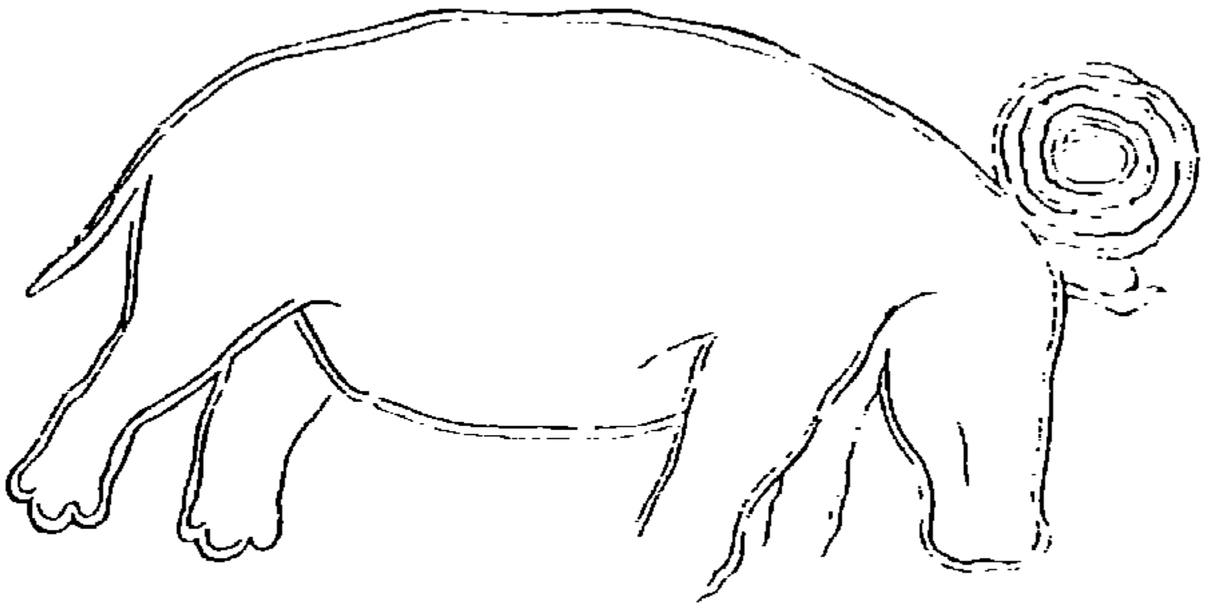

(٢)

(٣)

نقوش لحيوانات تحمل أقواصاً بين قرنيها

١ - وادى الحمامات (مصر) عن H. A. Winkler .

٢ ، ٣ - الصحراء الكبرى حسب M. Reygasse .

لوحة I

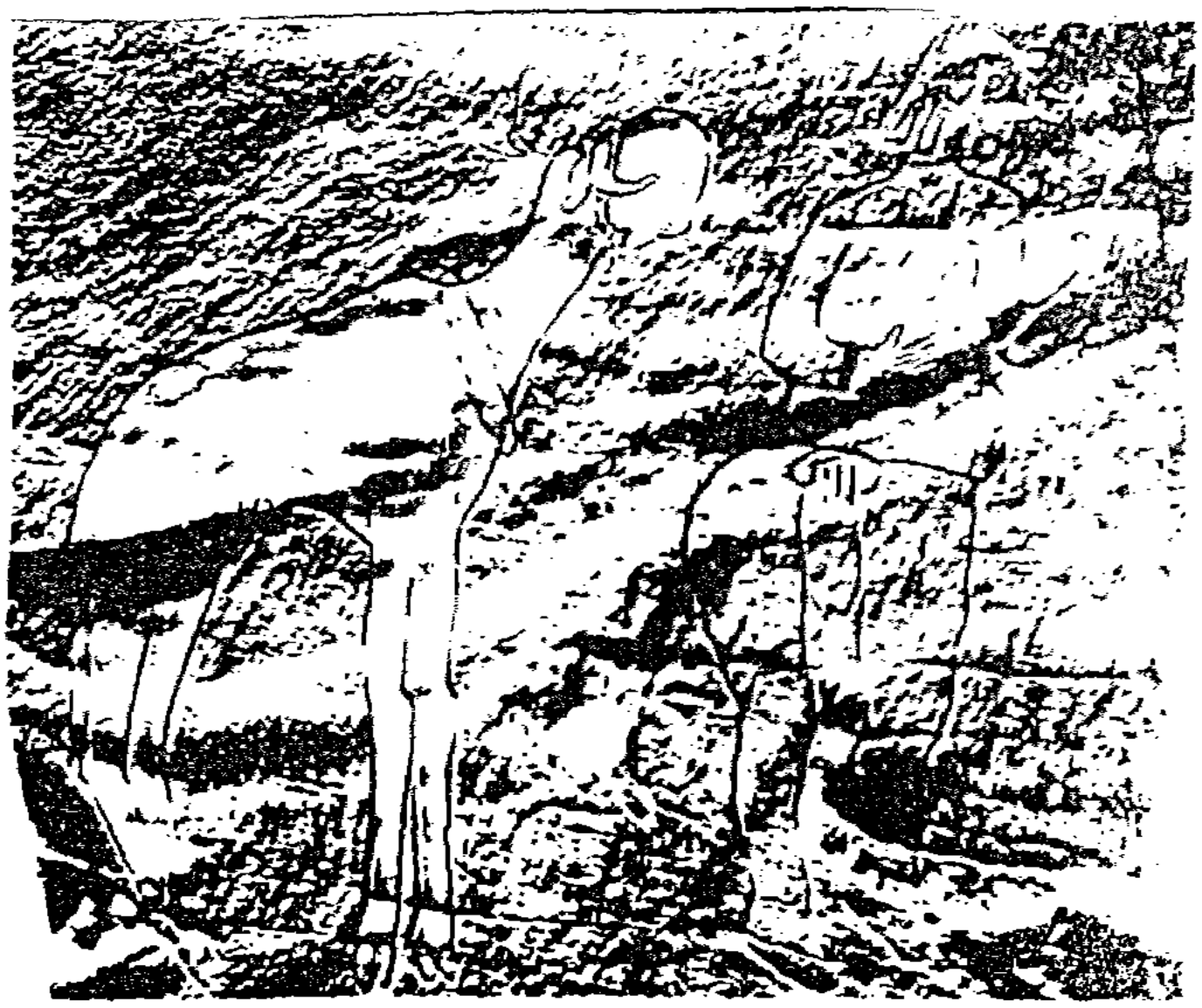

كبش بوعلام (الجزئر)

لوحة II

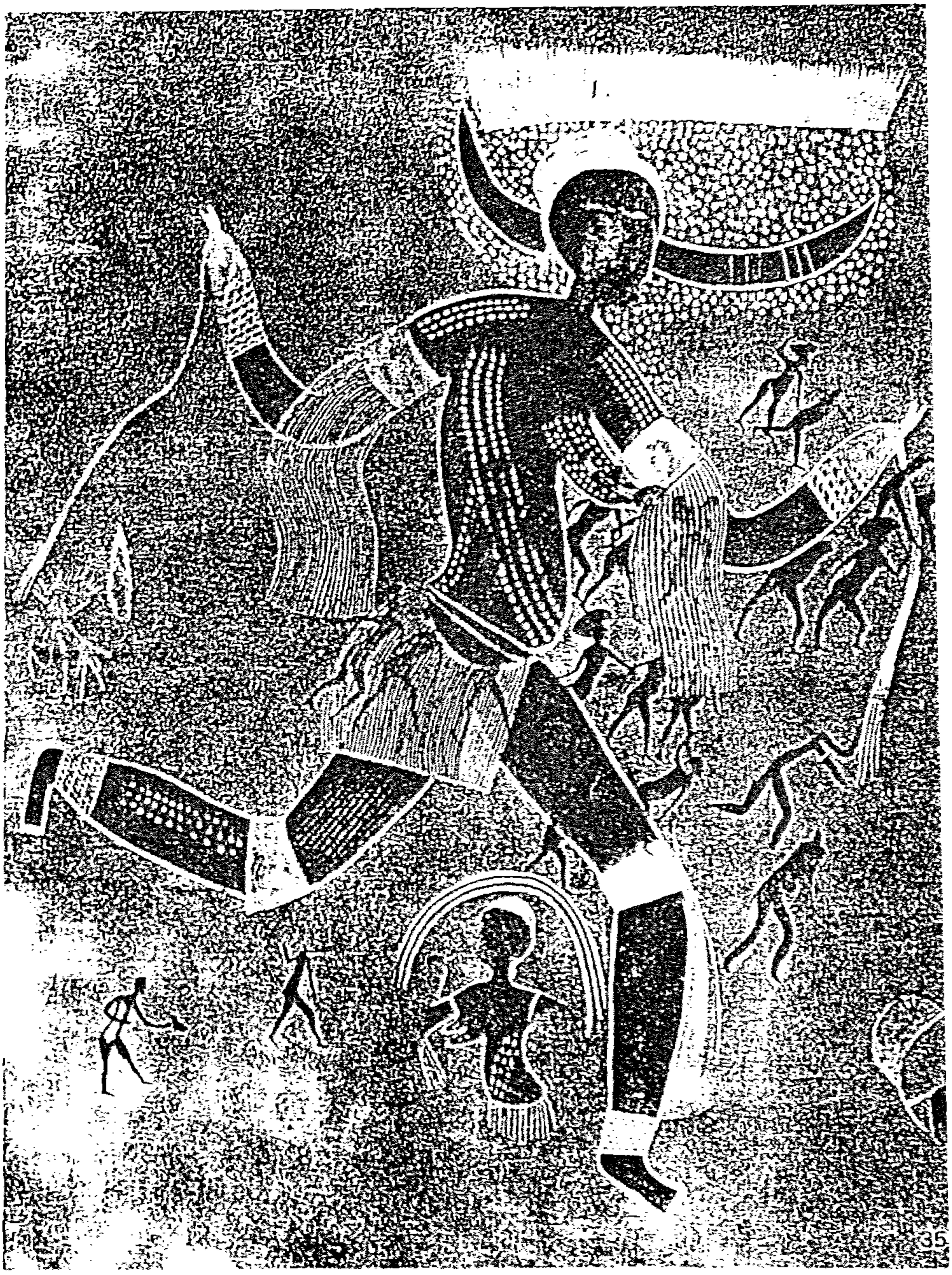

« السيدة البيضاء » تاسيلى نشر لوط

لوحة III

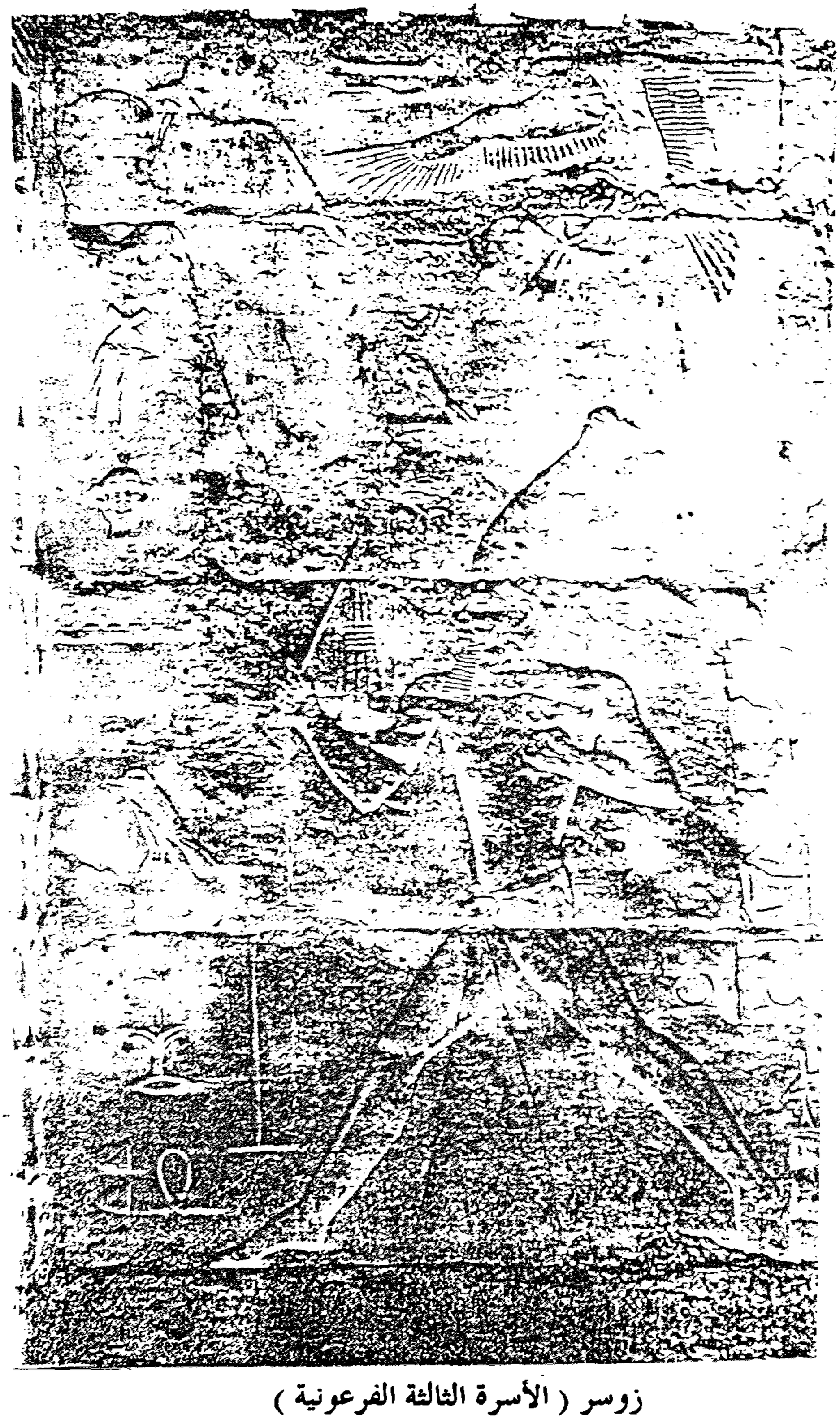

زوسر (الأسرة الثالثة الفرعونية)

وهو يؤدى طقوس عيد الحب سد

الإله الكبير – تاسيلى – نشر لوط

لوحة V

Tracings of a rain deity from jubbah.

أشكال آدمية خيالية فى جبه بحائل عن مجيد خان

لوحة VI

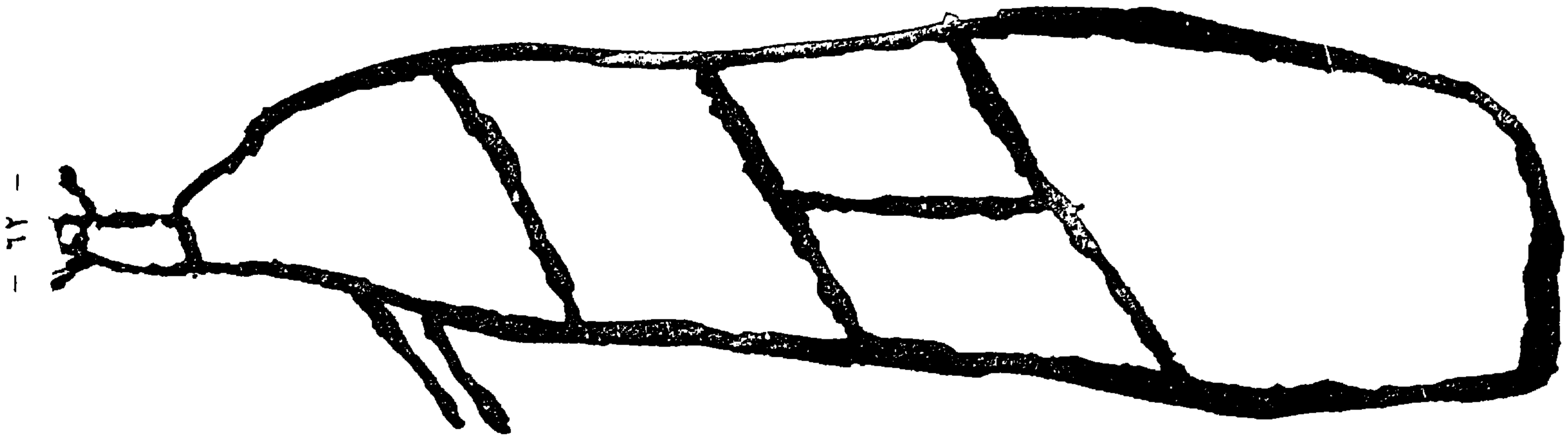

« الكائن الخرافى » شمال الجزيرة العربية عن مجيد خان

لوحة VII

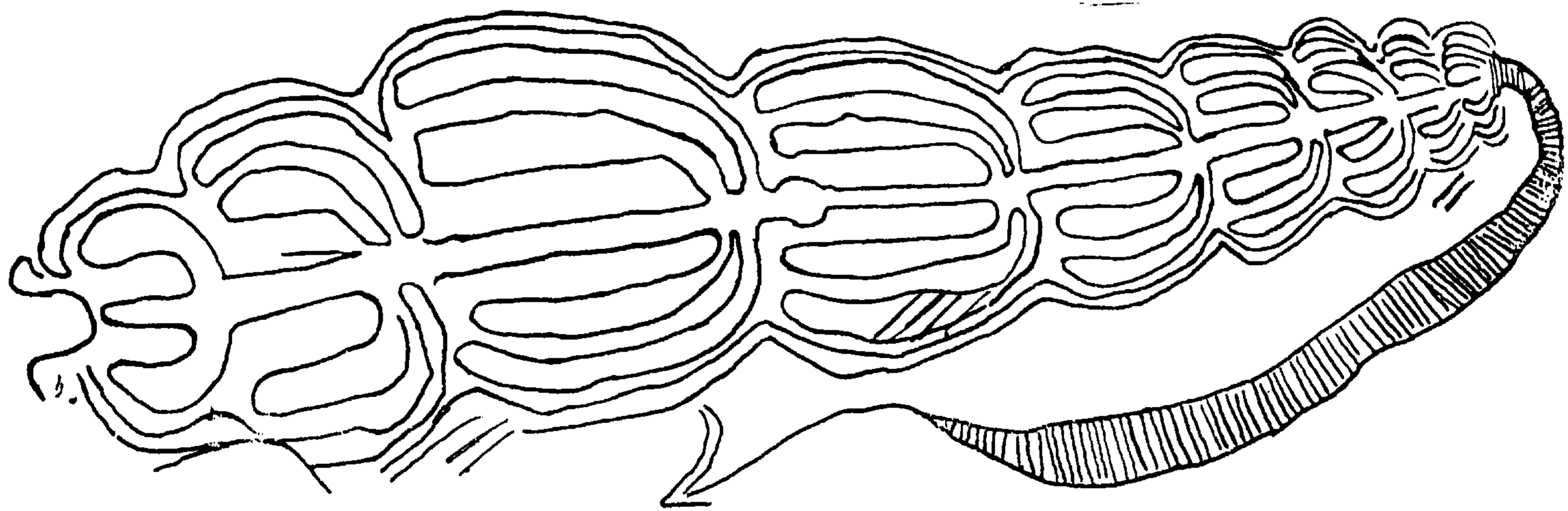

الكائن العجيب (جارة الطالب) الجزائر

عن : Vaufrey

لوحة VII

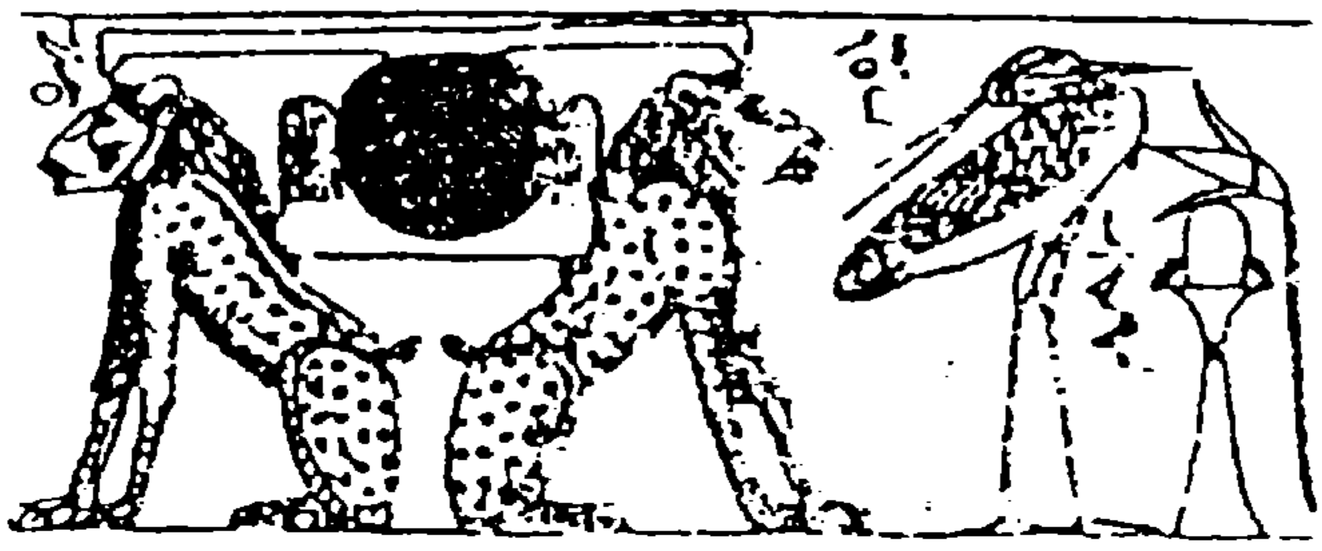

إلى السان إلهى الأمس واليوم فى صورة أسدين ظهراً لظهر يدعمان الأفق بقرص الشمس فوقهما عند رمز السماء . أسد اليسار يسمى « اليوم » وأسد اليمين يسمى « الأمس » .

لوحة IX

الهوامـش

(١) سبق للباحث أن تعرض لذكر هذا التصنيف بشيء من التفصيـل فـى بحـث سـابق . انظـر للباحث (الفن الصخرى فى بلاد المغرب القديم) بجلة المؤرخ العربى ، العدد السـادس ، المجلد ، مارس ١٩٩٨ ، ص ٦٢ - ٦٥ .

(٢) اتجهت بعض الآراء نحو مواطن أصول الأنواع البرية للنباتات والحيوانات . وفى زعمهم أن أقاليم غرب آسيا هى الموطن الأصلى للنباتات التى استزرعها الإنسـان فيمـا بعـد ، فهـى مهد الزراعة . انظر على سبيل المثال

Butzer. K. W. Environment and Human ecology in Egypt, B. S. R. G. E., xxx11, 1959, p. 44-45, Physical conditions in Eastern Europe, Western Asia and Egypt before tlement, in the Cambridge Ancient History, (Cambridge), 1970, Vol.1, P. 92.

وكذلك ج. هاوكس ول . وولى ، ثلاثة فصول مترجمة من كتاب (ما قبل التاريخ وبداية المدنية) ، ترجمة وتعليق يسرى الجوهرى ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٣) انظـر Braidwood, and Howe, Prehistoric Invetigations in Iraqi Kurdistam, 1960, p. 120. Mellaart in C. A. H., 1967 chap VII.

(٤) مما يذكر عن التشيعين لهذا الرأى ساقوا بعض التراكيب اللغوية التى تؤيد وجهة نظرهـم ، فأشاروا إل وجود عنصر لغوى : آمون أو آمون Amon - Ammon وهـو إلـه كبـش للماء فى كل بلاد البربر وليبيا ، وإن هناك كلمة بربريـة تعنـى المـاء هـى : آمـان وآمـون وتستعمل أيضاً فى لهجات الطوراق ، وعند الجوانش Guanches فى جزر الكنارى .

(٥)،(٦) انظر مقال الباحث (الفن الصخرى فى بلاد القديـم) سبقت الإشارة إليه فى هامش (١) ص ٧١ لوحة ٩ .

(٧) عن الجرامنت انظر ، فوزى جاد الله ، مسائل فى مصادر التاريخ الليبى قبـل هـيرودوت ، ليبيا فى التاريخ ، المؤتمر التاريخى ، مارس ١٩٦٨ ، ص ٤٣ - ٨٢ .

(٨) Lahote, H., Ala decouverte des fresques du Tassili, B. Arthaud, Paris, 1973, plts. II, 35.

(٩) مجيد خان ، الرسوم الصخرية لما قبل التاريخ فى شمال المملكة العربية السعودية ، نشر وزارة المعارف السعودية ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م لوحة ٨٠ .

(١٠) للمقارنة انظر Cyril Aldred, Egyptian art, London, 1980, fig. 14

(١١) ج. كى زيربو (الفن الأفريقى فيما قبل التاريخ) منشور فى مجلد (تاريخ أفريقيا العام) اليونسكو ، مجلد ١ ص ٦٧٧ .

(١٢) الملك العقرب من ملوك مملكة الصعيد ، قبل اتحاد القطرين ، ويعتقد أنه ممن حاولوا ضم مملكة الدلتا مع الصعيد فى مملكة واحدة ، قبل الملك (مينا - نعرمر) ومن آثار الملك العقرب نقش على رأس دبوس للقتال .

(١٣) Vaufrey, R. Prehistorire de l'Afrique, t. l. Magherb, Paris, 1955, p.299, pl.44

(١٤) ج. كى زيربو الفن الأفريقى ، اليونسكو ، مرجع سابق ، ص ٦٧٧.

(١٥) الواقع ورد ذكر من جانب مجيد خان ، عن وجود خيول وحشية وأفيال فى مناطق بشمال المملكة العربية السعودية ، واستشهد بلوحة رقم ٢٣ وبالأشكال ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ وجاء فى وصف هذه الأشكال ص ٦١ أنها خيول وحشية أو ربما حمير (؟!) وبتفحص الأشكال المشار إليها ، اتضح لى أنها أقرب إلى كونها حميراً فالأذنان طويلتان والذيل قصير ، وقد اقترح خان لهذه اللوحة الفترة ما بين الألف السابع والألف الخامس قبل الميلاد وهو تاريخ مبكر جداً ، عن العصر الذى ظهر فيه الحصان فى الشرق الأدنى القديم ، ونقول أن نفس الملاحظة تنطبق على ما أورده فى اللوحة رقم ٢٦ ، وفى شأن لوحة رقم ٣٨ : رقمى ٢٥٩ ، ٢٦٠ ربما صور الفنان الحصان بأسلوب تجريدى ولم يقترح خان لهذه اللوحة تقويم زمنى معين ، مما يصعب أن نعول على ما جاء بها . أما بشأن الأفيال فلم يشر خان إلى أى رسم لهذا الحيوان ، ونراه يناقض نفسه فى ١٤٣ حين : قال : « أما الأشكال التى ترمز للفيل فهى تخطيطية بدرجة كبيرة وفى موقعين فقط » (لم يذكرهما !) ثم نراه يعود فيتشكك هو نفسه فيما أورده عن الفيل فيقول (رغم أن وجود الأفيال فى الجزيرة العربية بعيد الاحتمال تماماً أثناء فترة العصر الحجرى الحديث المتأخر . لكن يبدو أنه مألوف لدى الرسامين) (؟!) انظر : مجيد خان ، الرسوم الصخرية

فى شمال المملكة العربية السعودية - مرجع سابق ، الصفحات واللوحات المشار إليها آنفاً .

(١٦) فى بحث سابق للدارس عن بعض لوحات من النقش الصخرى ، عرض لرأيه بخصوص الكثافة الفائقة عن الحد فى بعض المواضع وبالجهد الخارق فى سبيل تنفيذها . الأمر الذى يجعلنا نعتقد أن أصحاب هذه النقوش كانوا على وشك ابتداع رموز للكتابة خاصة بهم ولكن لظروف بيئية وطبيعية دهمتهم وئدت هذه الإرهاصات الوليدة . انظر للباحث: الفن الصخرى فى بلاد المغرب القديم . ارجع لهامش (١) .

(١٢) انظر هامش (١١) .

المصادر والمراجع

- فرنان دى بونو " وادى النيل قبل التاريخ " ، فى تاريخ أفريقيا العام ، المجلد الأول ، اليونسكو ١٩٨٥ ص ٦٤١ - ٦٦٣ .

- Bar-Yosef, O., and Phillips, J.L., Prehistorie invenstigations, in Gebel. Maghara, Northern Sinai, Jerusalem, M. I. A. No 7., 1977.

- Clark, J.D., Mesolithic Times, in : The Cambridge Ancient History, Vol, I p. I. 1980.

- Close, A. E., Prehistory of Arid North Africa, Dallas, 1988.

- Debono, F., and Mortensen , B., El - Omari A Neolithic settlement and Other . Sites, in the vicinity of Wadi Hof, Helwan, D D. I. A. Kairo, 1992.

- Eiwanger, J., Merimede Beni salame, III, D. D. I. A., Kairo, 1992, abb 13, 14.

- El-Chericf, H., « Outils Lithiques a Danfik (Nagade), A. S. A. E., t. LXXII, Le Cairo, 1993.

- Hassan, F. A., The Sebilian of the Nile Valley : Some New Concepts, in L.G. Freeman Viens of the post, Paris, 1981.

- Huzayyin, S.A, The place of Egypt in Pre - history, M. I. E., t. 43 Le Caire, 1941.

- Kozlowski, J. K., Récherches Préhistpriques dans la Cirque de Deir el- Bahari (Montagne Thebaine). Etudes et Travaux, IX, T. C. A. M. P. S. (pp. 48 - 55).

- Mc Burney, C. B. M., The Stone Age of Northern Africa, 2nd., ed., London (1980).

- Phillipson, D. W., African Archeology, Cambridge, 1986.

- Rizkana, I, and Secher, J., Maadi II, The Lithic Industries, of the Predynastie Settlement, Kairo, 1988.

- Rocke, J., « Les industries paleolithiques de la grotte de Taforalt (Morac Oriental). Actes du congres Panafricain de Prehistoire, Vi session Dakar, 1967.

- Schild, R., and Wendorf, F., New exeplorations in the Egyptian Sahara, In Problems in prehistory, North Africa and the Levant, Dallas, 1975, pp. 65- 112.

- Taute, W., « Das Ende der Altsteinzeitin Nordafrika, Sahra, 10.000 Jahre Zwischen Weide and Wuste Koln, 1978, pp.48 - 59.

- Vaufrey, R., Préhistoire de L'Afrique, I, Maghreb, Paris, 1955.

- Vignard, E., « Une nouvelle industrielithique Le Sebilien, « B. I. F. A. O. XXII, 1923.

- Vignard, E., « Une Station Aurgnacienne à Nag Hammadi., (Haute Egypte).

Station du champ de Bagasse. « B. I. F. A. O., XVIII, 1921,(pp.1-0).